موقف اتابكية دمشق من الغز و الصليبي
لبلاد الشام ٤٩٧ ـ ٥٤٩ / ١١٠٣ ـ ١١٥٤م

دريد عبد القادر نوري
مدرس مساعد

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

كانت منطقة الشام قبيل الغزو الصليبي تعيش حالة من التعقيد الذي اكتنف وضعها السياسي والاقتصادى والديني ، فقد كانت تحكمها قوى مختلفة وكثيراً ماكانت المنازعات الداخلية سمة ذلك الاختلاف ، في الوقت الذي كانت فيه قوى الصليبيين تنتهز الفرص الملائمة لتوقع بالخصم ، ومن ثم لتؤسس لها ملكاً على أنقاض ذلك البنيان .

كانت الخلافة العباسية في بغداد تريد الحفاظ على الشام كجزء من ممتلكاتها وكان الفاطميون في مصر يرون في الشام امتداداً طبيعياً لمصر وقاعدة عسكرية يستطيعون بها ان يؤمنوا حدود مصر الشرقية ضد الروم والعباسيين (١) وليجعلوا منها قاعدة لنشر مذهبهم (٢) .

اما الصليبيون فقد توجهت انظارهم نحو الشام لكسب مغانم مختلفة ، منها انهم وجدوا في فلسطين مركزاً رفيعاً لتحقيق مكاسب دينية وسياسية . (٣) كما كانت منطقة الشام — بما فيها انطاكيا — تمثل الطريق التجارى المهم الذي يربط الدول الاوربية بالعالم الشرقي (٤) . إضافة إلى ان الشام كان بالنسبة للغزاة بلد الغنى والجمال الذي يحقق للكثيرين من الفقراء والاقطاعيين مغانم كثيرة (٥).

ومن ناحية ثانية فقد كان يسكن منطقة الشام عدة قوى مميزة وكثيراً ماكان يحارب بعضها بعضاً منها : اتباع الفاطميون والقبائل العربية المحلية والامراء

(١) محمد حمدي المناوي ، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي (القاهرة : ١٩٧٠) ، ص ١٨٧ .

(٢) السيد الباز العريني ، مصر في عصر الايوبيين (القاهر : د/ت) ، ص ٧ .

(٣) انظر رحلة بنيامين ، ترجمة عزرا حداد (بغداد: ١٩٤٥) ، ص ٢٠ .

(٤) عقد هربرت فيشر فصلا كاملا عن أسباب نمو المدن في العصور الوسطى ، أوضح فيه أثر طرق المواصلات في نشاط التجارة وبالتالي نمو المدن ، وكان من بين الخطوط (طريق غرب آوربا فالبحر المتوسط إلى انطاكيا في الشام فجنوب شرقي آسيا) تاريخ اوربا في العصور الوسطى : ٢٢٢/١ .

(٥) انظر : Champdor,Saladin Le plus Pur burheros de Islam,P.28.

والقادة العسكريون من السلاجقة والاتراك ، بالاضافة إلى الهيئة العامةمن السكان (٦) .

وقد استغل الصليبيون ظروف بلاد الشام العامة وتقدموا لاحتلال بعض مدنه ، بعد أن استخدموا ضد المسلمين كل الوان الكذب لاشعال شعور المسيحية ضدهم ، لكي يبذلوا في حربهم النفس والمال ، (٧) ووصلوا اليها في ١٥ آب سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦م وكانت آنئذ أوصالا مفككة بين قوى الفاطميين والسلاجقة وغيرها من القوى المحلية .

وفي سنة٤٩١ هـ / ١٠٩٧ م استولوا على طرسوس والرها وحاصروا إنطاكيا ، ثم ملكوها سنة ٤٩٢ هـ . وفي نفس هذا العام إستولوا على القدس واعملوا في أهله الذبح والقتل بالجملة ، حتى ليقال أنهم ذبحوا من المسلمين سبعين الفاً طبقاً لما ورد في المصادر العربية والاجنبية على السواء (٨).

وإضافة إلى السياسة العسكرية — سياسة الارهاب والقوة — التي استخدمها الصليبيون للاستيلاء على بلاد الشام فقد إستخدموا سياسة اخرى يمكن ان تكون اول تطبيق لسياسة الاستعمار الاستيطاني باسلوب ديني . فقد كانوا يختارون لهم مواقع ذات سيطرة مهمة وينشئون لهم عليها كنيسة ، ثم يبدأون بتحصينها ومن ثم توسيعها حتى تكون قلعة حصينة ويقومون بعدها باستدعاء العساكر من أوربا إلى تلك الحصون لحمايتها ، ومن ثم لشن الغارات منها على المواقع الاسلامية المجاورة ، او لقطع الطرق على التجار والحجاج والاستيلاء على اموالهم .وكان حصن الكرك من الحصون التي اسست بتلك

---

(٦) انظر : هاملتون جب ، صلاح الدين الأيوبي (بيروت : ١٩٧٣) ، ص ٤٥ — ٦٠

(٧) لمعرفة الصورة الواضحة التي كانت تصور فيها أوربا الشرق الاسلامي في العصور الوسطى والعلاقات بين الشرق والغرب في فترة الحروب الصليبية انظر :
Norman Daniel ,Islam and the West (The Making of an Image) p.79,195

(٨) انظر : ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (بيروت : ١٩٠٨) ، ص ١٣٦ — ١٣٧.

الطريقة، إضافة إلى حصن عجلون في الاردن والشوبك على اطراف الشام (٩).

كذلك استخدم الصليبيون وسيلة اخرى للاستيلاء على المواقع المهمة وهي انهم كانوا يدخلون الحصون الاسلامية بوعود الامان ، ثم ينكلون بأهلها ويعذبونهم حتى يضطروا إلى مغادرة أراضيهم كما فعلوا بحصن جبيل ٤٩٧ هـ / ١١٠٣م . (١٠) .

وقد نتج عن تلك الاعمال العدوانية قيام بعض الامارات المحلية في بلاد الشام منها اتابكية دمشق — موضوع البحث — التي قامت في مدينة دمشق ومؤسسها الاتابك (*)ظهير الدين أبو منصور بن عبدالله التركي الاصل(١١) الذي استهل حياته العسكرية مملوكاً في خدمة السلطان تتش السلجوقي .

ونظراً لما إمتاز به طغتكين من مقدرة ، فقد أعتقه السلطان تتش وعهد إليه بتربية إبنه (دقاق) . ثم نزل له عن صفوة الملك ام دقاق لتكون زوجه له ، ليخلص بعد ذلك بتربية إبنه (١٢) ونظراً « لشهامته وصرامته وسداد طريقته » (١٣) فقد أعتمد عليه السلطان السلجوقي تتش كثيرا وعينه في

---

(٩) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة بذكر امراء الشام والجزيرة ، ق٢ ، ج٢ ، ص ٦٩—٧٠، ص ٨٦ — ٨٧ .

(١٠) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق ،ص ١٤٣ ؛ ابن شداد ، المصدر السابق، ص ٩٦.

* الاتابك ، تعني هذه الكلمة في اللغة التركية المنصب الذي يطلق على مربي الامراء والملوك الصغار ، والكلمة تتالف من لفظين : (أتا) بمعنى أب و (بك) بمعنى أمير أوسيد . واول من لقب بهذا اللقب هو الوزير نظام الملك من قبل السلطان السلجوقي ملكشاه ، حين فوض اليه أمر تدبير المملكة سنة ٤٦٥ هـ . أنظر : ابن خلكان ، الوفيات : ٣١٦/٦ ؛ القلقشندي ، صبح الاعشى : ١٨/٤ .

(١١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ١٧٧/٨ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ٢٣٤/٥ .

(١٢) ابن الاثير . الكامل في التاريخ : ٢٤٨/١٠ ؛ دائرة المعارف الاسلامية (بيروت : ١٩٦٦) مادة طغتكين : ١٩٦/١٥ .

(١٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ص ١٣١ .

مناصب عدة منها منصب قيادة جيشه ، كما اعتمد عليه في ولاية شؤون دمشق في حالة غيابه عنها . وولاه امارة ميا فارقين مع إبنه دقاق حيث أحسن السياسة فيها . (١٤)

وقد أخلص طغتكين من جانبه للسلطان تتش وشاركه في محاربة اعدائه فاشترك معه في القتال ضد إبن أخيه بركياروق سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م. إلا أن تتش هلك في ذلك القتال مما حدا به إلى الاعتراف بدقاق أميراً على دمشق . (١٥) فأظهر هذا ولاء عظيماً لمربية وزوج أمه طغتكين « وسرعان ماحذا طغتكين خذو كثير من الاتابكة فدفع نفسه دفعاً إلى القيام بدور الحاكم الفعلي ، ثم توفي دقاق في رمضان سنة ٤٩٧ هـ / ١١٠٤ م فدان طغتكين بالولاء اولا لابن دقاق واسمه تتش ولم يكن عمره يتجاوز السنة ثم لاخ من اخوة دقاق هو (ارتاش) وكان في الثانية عشرة من عمره . وسرعان ماعزل إرتاش عن الحكم واصبح طغتكين هو الحاكم الفعلي لمدينة دمشق . (١٦) ومنذ أن تولى طغتكين ولاية دمشق أظهر مقدرة سياسية وعسكرية. وقد أشار بعض المؤرخين إلى حسن تلك السياسة ، مما جعل أهالي دمشق يرضون بحكمة لإمارته يقول سبط ابن الجوزي: «وكان شجاعاً عادلاً حسن السيرة ظاهر العدالة، كثير الاحسان مدبر الممالك، فحسنت آثاره وعمرت البلاد في ايامه» (١٧) ووصفه ابن القلانسي بقوله : « وحسنت احوال دمشق واعمالها بإيالته ، وعمرت بجميل سياسته» (١٨) كما وقف من الصليبيين موقفاً حازماً فتصدى لهم وابطل كثيراً من مخططاتهم العدوانية على بلاد الشام . وقد شهد له ابن شاكر الكتبي بقوله : « وكان شهماً شديداً على الفرنج والمندسين » . (١٩)

---

(١٤) نفس المصدر والمكان السابق .

(١٥) انظر : ابن الاثير ، الكامل : ١٠/٢٤٤ – ٢٤٥ .

(١٦) انظر : الكامل : ١٠/٣٧٥ – ٣٧٦ .

(١٧) مرآة الزمان : ٨/١٢٨.

(١٨) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٥ .

(١٩) عيون التواريخ: ١٢/١٩٩

فقد اخذ على عاتقه، منذ ان تسلم مهام الامور بدمشق، الوقوف بحزم ضد الصليبيين وكان ذلك الامر خطيراً جداً نظراً للاضطراب السياسي الذي كان يعم بلاد الشام آنذاك ، وعدم وجود سلطة مركزية قوية قادرة على التصدى للصليبيين ففي سنة ٤٩٧هـ/١١٠٤م سيطر الصليبيون على مدينة عكا وجاء حاكمها دخيلا عند طغتكين (٢٠) يطلب منه العون والمساعدة . وكان هذا بمثابة تنبيه خطير لطغتكين بتحركات الصليبيين ، كما يدل ايضا التجاء حاكم عكا لطغتكين ان الاخير كان الزعيم الوحيد في بلاد الشام ، القادر ان يتزعم قيادة المسلمين في مجابهة الصليبيين ، لما كان يمتاز به من مقدرة ذاتية وقوة في عساكره ومعداته .

وقبل ان توجه طغتكين للصليبيين عمد إلى تثبيت حكمه في دمشق وإلى إخضاع الحصون والقلاع التابعة لمدينته، وذلك لتجميع القوى ومنع أي التفاف عليه من الخلف ، ربما يهدده لو إتجه بعيداً عن دمشق لمقاتله الصليبيين ، لذلك توجه إلى بعلبك بقصد إخضاعها له لان حاكمها كمشتكين الخادم ابدى نوعاً من التذمر تجاهه ، وقد تمكن من حصار المدينة واجبر حاكمها على ان يذعن له ويرضى بولايته . (٢١)

وبعد أن أمن طغتكين خطوط رجعته تفرغ للجانب الصليبي وهاجم حصن (علعال) الواقع إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية في ١٥ ربيع الاخر سنة ٤٧٩ هـ (٢٢) ، وذلك لانه علم ان الصليبيين كانوا قد شرعوا بعمارة الحصن لإتخاذه قلعة عسكرية . وقد تمكن من الزحف عليه ليلا والسيطرة على مافيه من آلات حربية وتدميره ، ثم رجع إلى دمشق ظافراً بالغنائم والاسرى ،(٢٣) حيث أقيمت احتفالات النصر و«زين البلد أربعة أيام»(٢٤)

(٢٠) سبط ، مرآة الزمان : ١٢٩/٨ .
(٢١) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٨ .
(٢٢) العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ٣١٥/١ – ٣١٦ .
(٢٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٩ ؛ مرآة الزمان : ١٢٦/٨ .
(٢٤) الكامل : ٣٩٩/١٠ – ٤٠٠ ؛ الحنبلي ، شذرات الذهب : ٤٠٩/٣ .

بأنواع الزينة التي أعجبت الناظرين ، وقد وصفها ابن كثير بقوله : « وزينت البلد زينة عجيبة مليحة » (٢٥) .

وبعد إنتصار طغتكين السابق ازدادت ثقته بمقدرته وصلابة عساكره فتقدم إلى تحرير بعض الحصون الاخرى المجاورة حيث هاجم في السنة ذاتها حصن (رفينة) وهو من حصون الشام، وكان تحت سيطرة الصليبيين، واستطاع ان يملكه ويقتل خمسمائة رجل من الصليبيين (٢٦) . كما اجاب طلب الفاطميين في مصر ، عندما دعوه لمساندتهم للتصدي للصليبيين والنزول على عسقلان (٢٧) فأرسل الفين من جنوده اشتركت مع القوات الفاطمية في معركة حامية بالقرب من عسقلان تكبد فيها الصليبيون خسائر فادحة في منتصف سنة ٤٩٨ هـ / ١٠٩٥ م (٢٨) .

وبعد انتصارات طغتكين السابقة اشتد ساعد الصليبيين وازدادت حميتهم في الهجوم على المواقع الاسلامية ومحاصرتها . من ذلك محاولة — ملك بيت المقدس — محاصرة مدينة صور وصيدا في سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧م ، لغرض السيطرة عليهما ، غير ان محاولته باءت بالفشل وذلك للامدادات السريعة التي ارسلها طغتكين من دمشق ناحية البر ، ووصول الاسطول المصرى من ناحية البحر ، مما حمل الصليبيين إلى التخلي عن فكرتهم والعودة إلى القدس (٢٩) . غير ان محاولتهم لم تنته في الهجو على المدن الاسلامية اذ سرعان ماهاجموا مدينة طرابلس وتمكنوا من اسقاطها .

---

(٢٥) البداية والنهاية : ١٦٥/١٢ .
(٢٦) مرآة الزمان : ١١٣/٨ ؛ الكامل : ٤٠٠/١٠
(٢٧) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ١٤٨ — ١٤٩ .
(٢٨) الذهبي ، العبر في خبر من غبر : ٣٥٠/٣ .
(٢٩) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ١٦٢ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ٢٥/٨ .

سيطرة الصليبيين على طرابلس :

ولما تعاظم امر الصليبيين في الشام وهددوا مدينة طرابلس اتفق حاكمها فخر الملك بن عمار مع طغتكين على ضرورة مكاتبة السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه . وقد ارسل كتابين في سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م تضمنا الخبر بشرح « ماارتكبه الافرنج من الفساد في البلاد وتملك المعاقل والحصون بالشام والساحل والفتك بالمسلمين ومضايقة ثغر طرابلس ... (ثم طلبوا منه النجدة) والحضّ على تدارك الناس بالمعونة » (٣٠) .

ولما لم تصل أية إمدادات خرج فخر الملك من طربلس في آذار سنة ١١٠٨م بعد ان عهد بالحكومة إلى ابن عمار وقصد الذهاب بنفسه إلى بغداد . وقد رحبت به بغداد غاية الترحيب ووعده السلطان بان جيشاً سلجوقياً ضخماً سوف يذهب لانقاذ طرابلس بعد قيامه ببعض المهام الداخلية . وقد شعر فخر الملك أن بغداد غير جادة في إنقاذ الموقف لذلك شرع في المسير عائداً إلى طرابلس.(٣١)

وفي طرابلس شعر حاكمها بأن مساعدة بغداد قد تأخرت ، لذلك أرسلوا على الفور إلى الفاطميين يطلبون العون والمساعدة ، فأرسل اليهم الوزير الفاطمي الافضل والياً على طرابلس واسمه (شرف الدولة) الذي تسلم مهام الامور في المدينة في صيف سنة ١١٠٨م بعد أن القى القبض على انصار فخر الملك وبعث بهم اسرى إلى مصر . (٣٢)

وفي تلك الاثناء كانت قوات الصليبيين قد وحدت قواها وأجمعت على إحتلال المدينة . وفي شهر تموز سنة ١١٠٩م /١١ ذي الحجة سنة ٥٠٢هـ أحاطت بالمدينة من كل جانب وتمكنت من إسقاطها ، ثم عمد الجنويون إلى نهب المدينة بعد أن أسروا الرجال وسبوا النساء (٣٣) رغم عهد الامان الذي

---

(٣٠) ذيل تاريخ دمشق : ١٥٦ .

(٣١) انظر : الكامل : ٤٥٢/١٠ – ٤٥٤ بارنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ١٠٥/٢ .

(٣٢) رنسيمان ، المرجع السابق : ١٠٦/٢

(٣٣) سبط الجوزي، مرآة الزمان : ٢٧/٨ – ٢٨ .

منح لاهالي المدينة . وقد اعترف بتلك الاعمال الوحشية رنسيمان حيث قال : «أخذ الجنويون ينهبون ويحرقون الدور ويقتلون كل ماصادفهم من المسلمين ...(بعد أن احرقوا مكتبة بني عمار) التي تعتبر أروع مكتبات العالم ...» (٣٤)

والذي يبدو من دراسة النصوص التاريخية ان الذي عجل في سقوط طرابلس بيد الصليبيين أن جيش السلطان السلجوقي لم يصل إلى المدينة منجداً ، لان طرابلس حوّلت ولاءها للفاطميين في مصر وطلبت المعونة منهم ، كما تبين ذلك من قبل، ومن ناحية ثانية فإن الامدادات الفاطمية لم تصل عن طريق البحر بسبب بعض الظروف الطبيعية الصعبة والمنازعات الداخلية بين قادته . (٣٥)

وقد القى المؤرخ ابن تغري بردي تبعية سقوط مدينة طربلس بيد الصليبيين بشكل مباشر على الفاطميين وأوضح بأنهم لم يكترثوا بقوة الصليبيين من كل وجه، حيث لم يوجهوا قواتهم بسرعة لانقاذ الموقف ، في حين أن القوات التي ارسلوها كانت ضعيفة ، إضافة إلى عدم خروج الوزير الفاطمي بنفسه بالعساكر المصرية، كما كان يفعل والده من قبل ، وهذا يدل على عدم صدقه في حسم الموقف مع الصليبيين . (٣٦)

وفي الوقت الذي كانت فيه قوات المسلمين مفككة ، كانت قوات الصليبيين في حالة توحيد طاقاتها حيث اجتمع خارج اسوار طرابلس كل امراء الصليبيين في الشهر الرابع من سنة ١١٠٩م وهم برتراند والملك بلدوين وتنكرد وجوسلين واتفقوا جميعاً على احتلال المدينة وتسوية خلافاتهم . (٣٧)

---

(٣٤) تاريخ الحروب الصليبية : ١١٣/٢ — ١١٤ .

(٣٥) انظر : ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٣ — ١٦٤ .
عاشور ، الحركة الصليبية : ٣٧١/١ ،رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية : ١١٢/٢ — ١١٣ .

(٣٦) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة : ١٧٩/٥ — ١٨٠ ؛ وانظر : عاشور ، الحركة الصليبية : ٣٧١/١ . " " "

(٣٧) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية : ١١٢/٢ .

وبعد أن سيطر الصليبيون على طرابلس توجهوا إلى حصن جبله (٣٨) وحاصروه حصاراً شديداً حتى تمكنوا من الاستيلاء عليه بالامان من فخر الملك بن عمار ــ حاكم طرابلس السابق ــ الذي خرج منه متوجهاً إلى قلعة شيزر ثم إلى دمشق حيث اكرمه طغتكين اكراماً حسناً ومنحه ولاية بعض القلاع المجاورة لدمشق في المحرم من سنة ٥٥٠٣ / ١١٠٩م . (٣٩)

ومن حصن جبله توجه الصليبيون إلى حصن عرقه (٤٠) وضربوا عليه الحصار وقطعوا عنه الميرة ، فاستنجد حاكمه بطغتكين وطلب منه المجيء اليه ليسلمه الحصن خوفاً من سقوطه بيد الصليبيين وقد جاء في كتابه «لان يأخذه المسلمون خير لي دنيا وآخره من أن يأخذه الفرنج» (٤١) . غير أن سوء الاحوال الجوية وهطول الامطار والثلوج ، عرقل تقدم جيوش دمشق للانقاذ . ولما وصل طغتكين متأخراً وجد أن الصليبيين قد أحاطوا بالحصن من كل جانب فأراد أن يشغلهم لبعض الوقت ويفرق شملهم فذهب لحصار حصن الاكمه (٤٢)، غير أن محاولته فشلت لان الصليبيين تمكنوا من هزيمته ، وعادوا إلى حصن عرقه مرة ثانية وملكوه بالامان . (٤٣)

---

(٣٨) جبله : قلعة بساحل الشام من اعمال حلب تقع قرب مدينة اللاذقية. (ياقوت ، معجم البلدان : ١٠٥/٢) .

(٣٩) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٤ .

(٤٠) عرقه : بلده تقع الى الشرق من طرابلس (ياقوت ، معجم البلدان : ١٠٩/٤) .

(٤١) ابن الاثير الكامل : ٤٦٧/١٠ ــ ٤٦٩ .

(٤٢) الاكه : حصن يقع في الجليل بفلسطين (معجم البلدان : ٢٤١/١) .

(٤٣) ابن القلانسي ، المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

الهدنة بين بلدوين الاول وطغتكين سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م:

أصبح الصليبيون بفضل إنتصاراتهم السابقة يقطعون طرق المواصلات ويهددون قوافل التجارة الذاهبة من وإلى دمشق . ففي احدى المرات سيطروا على قافلة تجارية كانت تضم أربعة الاف جمل كانت في طريقها إلى دمشق.(٤٤)

ولما كان طغتكين غير قادر على التصدي للصليبيين لوحده من ناحية، ورغبة الصليبيين أنفسهم بالاتفاق معه من ناحية ثانية ؛ لذلك عمد طغتكين إلى التنازل للصليبيين عن بعض مواقفه ووافق على عقد هدنة قصيرة الامدإستغلهالتجميع قواته. وعلى اثرها هاجم منطقة الجليل واصطدم بالصليبيين خارج طبرية ، انتصر فيها عليهم وأسر منهم الامير جيرفاس بوسوك ومعظم قادة جيشه . ثم أخطر بلدوين بعد ذلك وطلب منه التنازل له عن طبرية وعكا وحيفا ثمناً لاطلاق سراحهم. ولما رفض بلدوين طلبه أمر باعدام خيرفاس . (٤٥)

وفي نهاية سنة ١١٠٨م راسل بلدوين طغتكين وقال له في جملة ماذكر: «فالملوك ينالهم اكثر مما نالك ثم تعود امورهم إلى الانتظام والاستقام ...» (٤٦) وطلب منه الموافقة على عقد هدنة جديدة لمدة عشر سنوات نصت على أن «يكون السواد (٤٧) وجبل عوف اثلاثاً ، للاتراك الثلث والإفرنج والفلاحين الثلثان (٤٨) ». وقد وافق طغتكين على المعاهدة لمصلحة بدت له منها .

والراجح ان الطرفين قبلا بالهدنه لدواعٍ تجاريه ، لان المعارك السابقة قطعت الطرق التجارية ، وفي ذلك مايعود بالخسارة على الطرفين.

---

(٤٤) رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية : ١٥٨/٢ ؛ العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ٣١٦/١ – ٣١٧ .

(٤٥) تاريخ الحروب الصليبية : ١٥٦/٢ .

(٤٦) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ : ٤٦٧/١٠ – ٤٦٩ ؛ وانظر ابن خلدون ، العبر: ١٥٢/٥ .

(٤٧) السواد : موضع قرب البلقاء في شرق نهر الاردن ، سمي بالسواد لسود حجارته (ياقوت الحموي معجم البلدان : ٢٧٠/١) .

(٤٨) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ١٦٤ ؛ وانظر : سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان: ٢٨/٨ . وقد ذكر الاخير نص المعاهدة بالشكل التالي :« على أن يكون السواد وجبل عوف أثلاثاً للافرنج والباقي للمسلمين »

اضافة إلى أن بلدوين كان متخوفاً من طغتكين وكان يعلم يقيناً ان المسلمين سوف لن يسكتوا عمّا أصابهم من خسائر ، وانهم سوف يجمعون شملهم ويأخذون بثأرهم . كما ان مصرع (جيرفاس) ابن اخت بلدوين بطبريه على يد طغتكين ، ترك اثر سيئ في نفوس الصليبيين مما جعلهم يتنازلون قليلاً عن انتصارهم خوفاً من عواقب الامور .

وبذلك فإن التقاء مصلحة الطرفين عجلت في توقيع بنود الهدنة ، والذي يبدو أن الصليبيين كانوا هم الغالبين . فقد أخذوا حصة الاسد من الاراضي ، وتركوا للمسلمين الثلث بحجة ان الثلث الثالث للفلاحين . علماً ان الاراضي التي بقيت للفلاحين كانت بشكل أو آخر تحت النفوذ الصليبي وتستمد قوتها منهم . وبمعنى آخر لقد كان بلدوين ذكياً بحيث تمكن من املاء شروطه على طغتكين وجعله يتنازل عن بعض حقوقه للصليبيين بحجة ان الثلث الثالث للفلاحـــيـــنْ .

ورغم أن المعاهدة السابقة كانت مجحفة حقوق المسلمين ، فإنها كانت بنظر بعضهم ايجابية ، لانها أوقفت ــ على الأقل ــ الغزو الصليبي على مدينة دمشق ، وأعطت لحكامها قسطاً من الراحة مكنتهم من اعداد عدتهم للمعارك المقبلة يقول ابن الأثير : «وكان ذلك من لطف الله تعالى بالمسلمين ، ولولا هذه الهدنة لكان الفرنج بلغوا من المسلمين ... أمراً عظيماً » . (٤٩)

ولما كان هدف الصليبيين التوسع المستمر على حساب الارض العربية ، لذلك فان المعاهدة السابقة لم توقف نشاطهم ، بل وجدوا ستارا يحجب تحركاتهم في القسم الشمالي من بلاد الشام غير المشمول بالمعاهدة السابقة ، لذلك لم تمض سنة واحدة على عقد تلك المعاهدة حتى تقدم بلدوين إلى مدينة بعلبك بقصد احتلالها (٥٠) . كما هاجم الصليبيون في الطرف الثاني حصن رفنية ، مما دفع طغتكين إلى التصدي لهم والتقدم لحربهم ، غير انهم سرعان ما انسحبوا من

(٤٩) الكامل في التاريخ : ٤٦٧/١١ .

(٥٠) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ١٧١ .

من مواقعهم الجديدة ، وتقدموا بعرض جـــديد للسلام يمنحهم سيطرة اكثر على بعض المناطق الاخرى ، وافق عليها طغتكين في لبس من الامر لم يذكر عنه المؤرخون شيء والذى يبدو انه قبل بها للاسباب السابقة الخاصة بعدم تمكنه من محاربتهم . وكان الاتفاق الجديد ينص على : « ان يكون للافرنج الثلث من استقلال البقاع ويسلم اليهم حصن المنيطرة وحصن بن عكار ويكفوا عن العبث والفساد في الاعمال والأطراف ، وان يكون حصن مصايف وحصن الطوفان وحصن الاكراد داخلا في شرط الموادعة ويحمل اهلها عنها مالا معيناً في كل سنة إلى الافرنج » » (٥١) .

غير ان المعاهده السابقة لم تستمر ففي سنة ٥٠٤هـ / ١١١٠م نقض بلدوين شروطها وامر حاكم طرابلس الصليبي (صنجيل) بتجهيز جيوشه والنزول على طبرية للسيطرة عليها .

ولما علم طغتكين بمخططات الصليبيين صمم على محاربتهم بكل ماأوتي من قوة فاستدعى كافة عساكره ثم امرهم بمحاصرة الصليبيين . فانتشروا في مناطق عدة ونجحوا في قطع الميرة عنهم ، فاضطروا إلى طلب الصلح فوافق طغتكين وانتهى الامر بأن تتقلص الاراضي التي كانت تحت سيطرة الصليبيين ، وتمنح الاعمال والضياع التي تلي جبل عوف والسواد إلى العرب من آل الجراح .(٥٢) . وبذلك استعاد العرب بعض حقوقهم وبدأت مرحلة جديدة من التكتل ضد الصليبيين .

وحدة عساكر ديار بكر وبلاد الجزيرة ضد الصليبيين وموقف طغتكين منها :—

كانت لدى السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه رغبة في تجميع الجيوش الاسلامية من مناطق الجزيرة وديار بكر وارسالها إلى بلاد الشام لمحاربة الصليبيين الذين زاد خطرهم على المدن والقلاع الاسلامية وباتوا يهددون بلاد الشام باسرها.

---

(٥١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ٨/٣٠ — ٣١ ، ذيل تاريخ دمشق : ١٦٥.

(٥٢) ذيل تاريخ دمشق : ١٧٤ ، مرآة الزمان : ٨/٣٥

وكانت بداية تلك الرغبة سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م عندما طلب من طغتكين أن ينظم إلى العساكر التي سوف تأتيه من بلاد الجزيرة . (٥٣) .

الا أن تلك الرغبة لم تتحقق الا في العام التالي سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م حيث طلب السلطان ملكشاه من بعض الامراء المسلمين ، التابعين له ، ان يوحدوا عساكرهم ويتجهوا إلى بلاد الشام ، حيث يستقبلهم هناك طغتكين حاكم مدينة دمشق ، والملك رضوان ، حاكم مدينة حلب ، وكان من بين الامراء الذين وصل اليهم نداء السلطان السلجوقي : شرف الدين مودود امير الموصل ، وقطب الدين سكمان امير ديار بكر (٥٤) والامير أحمد يل (امير مرافة) (٥٥) والامير ايلغازي حاكم مدينة ماردين (٥٦) الذي ارسل نيابة عنه إلى بلاد الشام ابنه اياز (٥٧) .

والحقيقة ان وحدة العساكر السابقة لم تنجح ، لاختلاف مصالح الامراء السابقين ورغبة بعضهم بالحفاظ على امارته ، وعدم التنازل عن قيادة الجيوش. اذ سيطرت على البعض منهم المصالح الشخصية (٥٨) وهذا هو السبب الذي ادى إلى فشلهم وتفرق كلمتهم وبالتالي إلى استغلال الصليبيين للموقف ومهاجمتهم مدينة دمشق ، كما سيتبين ذلك فيما بعد .

أما الجيوش المتجمعة فقد توجهت إلى بلاد الشام بقيادة الامير مودود حاكم الموصل ووصلت إلى (تل باشر) . لكن سرعان ماحصلت الاختلافات وظهرت الاطماع ، وكشف كل واحد من الامراء عن موقفه ، فاختلفت كلمتهم وانسحبوا إلى مدينة حلب . وقد عزا المؤرخ ابن الاثير بعض اسباب ذلك

(٥٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ١٦٥ – ١٦٦ ، مرآة الزمان : ٣١/٨ .
(٥٤) مرآة الزمان : ٣٥/٨ – ٣٧ .
(٥٥) مراغة : مدينة في منطقة اذربيجان انظر : ياقوت الحموى ، معجم البلدان : ٩٣/٥ .
(٥٦) ماردين : قلعة مشهورة تقع على جبل الجزيرة وتشرف على دنير ودارا ونصيبين ياقوت، المعجم : ٣٩/٥ .
(٥٧) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ : ٤٨٥/١٠ .
(٥٨) العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ٤٥٨/١ – ٤٥٩ .

الاختلاف إلى الامير أحمديل – امير مرافة – الذي انسحب إلى بلاده بعد أن علم بوفاة الامير سكمان القطبي ، وذلك ليقنع السلطان السلجوقي بضرورة اعطائه املاكه (٥٩) .

ولقد كان موقف طغتكين من وحدة تلك العساكر ، موقفاً صادقا ، لانه حالما وصله النداء من بغداد توجه نحو توحيد الطاقات من المدن والقلاع التابعة له . وجمع جيوش مدينة دمشق وحمص وحماة ورفنية (٦٠) وتقدم نحو حلب حيث توجد العساكر التي قدمت من الجزيرة وديار بكر .

وقد ظهرت المشكلة حين امتنع امير حلب (رضوان) من فتح ابواب مدينته والسماح للعساكر الاسلامية من الدخول إلى المدينة خوفاً على امارته من السقوط بأيديهم ، علماً بأنه تنازل للاسماعيلية قليلاً (٦١) واعتمد عليهم في حفظ أسوار المدينة (٦٢) ومن ناحية ثانية فان الامير رضوان لم يكن متحمساً للجهاد ضد الصليبيين ، وكان يخشى انضمام اهالي حلب إلى العساكر الاسلامية ، لان ذلك يؤدي إلى سقوط ملكه . ولذلك اعتمد على رجال الاسماعيلية في حفظ البلد (٦٣) .

---

(٥٩) الكامل في التاريخ : ١٠/٤٨٥ – ٤٨٨ .

(٦٠) مرآة الزمان : ٨/٣٥ – ٣٦ .

(٦١) الاسماعيلية : ويقصد بها الحركة الجديدة التي سميت بالحشيشية . وقد ظهرت بشخص الحسن بن الصباح ، والتي ادعت انها تنتسب إلى اسماعيل بن الامام الصادق (ع) . وقد بدأت هذه الحركة بالعمل بعد احتلالها لقلعة الموت سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠ م. الواقعة شمال بحر قزوين وقد قام دعاة هذه الحركة بأعمال ارهابية كثيرة في منطقة الشام وايران وتعاونوا مع الصليبيين ضد بعض الحكام من المسلمين ولمعرفة المزيد عنهم انظر :

Ency·Britannic(Art· Assassins)11, P· 621, Ancy· of Islam(Art·Al· Batinyy)1, P·P·1098 – 1099,

دريد عبد القادر نوري ، سياسة صلاح الدين الايوبي ، ص ٣٦٣ – ٣٧٩ .

(٦٢) زبدة الحلب في تاريخ حلب : ٢/١٥٨ – ١٦١ ، ذيل تاريخ دمشق : ١٧٥ .

(٦٣) انظر : العريني ، الشرق الاوسط : ١/٤٥٩ .

هكذا اذن فان المصالح الشخصية وخوف بعض الامراء على ملكهم من السقوط ادى إلى تفرق الكلمة وانسحاب العساكر كل إلى مواطنها . علماً بأن البعض لم تكن «لديه عزيمة في الجهاد ، ولا في حماية البلاد» (٦٤) ولم يبق من اولئك الامراء من هو مصمم على الجهاد ضد الصليبيين سوى طغتكين والامير مودود حاكم الموصل (٦٥) . حيث اتفقا على تشكيل جبهة واحدة ضد الصليبيين ، وتقدما بقواتهم نحو شيزر . وهناك خرج اليهم اميرها (أبو العساكر ابن منقذ) واخبرهما بأن الصليبيين قد انشأوا لهم حصناً عسكرياً مقابل شيزر بعد علمهم بتفرق عساكر المسلمين ، مما دفع بطغتكين ومودود إلى المسير اليه ومهاجمته ، واجبار الصليبيين إلى العدول عن اكمال انشائه والعودة إلى حصن رفينـــة (٦٦) .

هجوم الصليبيين على دمشق واندحارهـــم

ان فشل الحملة التي اراد الامراء المسلمون القيام بها ضد الصليبيين في منطقة الشام سنة ٥٠٥هـ/١١١١م أظهرت تفككهم وعجزهم عن جمع شملهم ، كما انها فسحت المجال للصليبيين ليكونوا — كما يقول ابن القلانسي — «يدا واحدة على الاسلام» (٦٧) . لذا شرع الصليبيون في سنة ٥٠٦هـ/ ١١١٢م إلى مهاجمة مدينة دمشق واعمالها ، وإلى نهب وتخريب مايمكنهم الوصول اليه فانقطع نتيجة لهذه الاعمال العدوانية ، ايصال المواد الغذائية إلى دمشق ، فارتفعت الاسعار ، وضاقت أحوال دمشق. لذلك طلب طغتكين المعونة من صديقه (مودود) أمير الموصل ، (وتميرك) امير سنجار ، وايازبن الغازي امير ماردين والتقت عساكر الجميع عند منطقة سلمية (٦٨) .

---

(٦٤) ذيل تاريخ دمشق : ١٧٥ .
(٦٥) انظر : مرآة الزمان : ٣٥/٨ ، ٣٧ ، زبدة الحلب ، ١٥٨/٢٠ — ١٦١ .
(٦٦) الكامل في التاريخ : ٤٨٥/١٠ — ٤٨٨ ، تاريخ ابن خلدون : ٤١/٥ .
(٦٧) مرآة الزمان : ٣٧/٨ .
(٦٨) سلمية : بلدة صغيرة من اعمال حماة (ياقوت ، معجم البلدان : ٢٤/٣) .

ومن هناك توجهوا لمحاربة الصليبيين، فاتجهوا نحوطبرية وعند الاقحوانية(٦٩) ، اصطدموا بالصليبيين في ١٣ محرم سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣ م وانزلوا بالصليبيين خسائر فادحة (٧٠) واسروا منهم حوالي الفي فارس ، كما غرق قسم كبير منهم في بحيرة طبرية حتى قيل ان ماءها مال لونه إلى الاحمرار من كثرة دماء الصليبيين حتى أن بعض الناس امتنع عن شربه لعدة أيام (٧١).

وبالرغم من المبالغة الكبيرة في الوصف السابق ، الا أنها تدل — من غيرشك — على عظم المعركة التي اعد لها المسلمون ، وعظم الخسارة التي مني بها الصليبيون.

ونتيجة للانتصار السابق ، فقد دب الشعور بالحماس والقوة في نفس طغتكين ومودود والامراء الاخرين المرافقين له ، فاغاروا على الضياع الصليبية الواقعة بين مدينة عكا وبيت المقدس ، وخربوها وقتلوا بعض من كان فيها من العساكر المقاتلة ، ثم عادوا إلى دمشق (٧٢) للاستراحة وقد امر مودود العساكر الاسلامية بالعودة إلى ديار بكر طلباً للراحة ، على ان يعودوا مرة ثانية لمواصلة مقاتلة الاعـــداء (٧٣) .

ومن دمشق عمد الامير طغتكين إلى مكاتبة الخلافة العباسية لاخبارها بانتصاراته التي حصل عليها . وليبرهن لها من ناحية ثانية صلته بها ، واستمداد سلطته منها . فأرسل لها مع بعض كتبة عدداً من الاسرى — كدليل عملي على الانتصار — مع كثير من الهدايا وكمية من اسلحة الصليبيين (٧٤) .

---

(٦٩) الاقحوانه : موضع بالاردن على شاطىء طبرية (معجم البلدان : ٢٣٤/١) .

(٧٠) انظر : الكامل : ٤٩٥/١٠ — ٤٩٦ : تاريخ العبر : ٤١/٥ — ٤٢ ، البداية والنهاية ١٧٥/١٢ — ١٧٦ .

(٧١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ٤٢/٨ — ٤٣ .

(٧٢) نفس المصدر والمكان السابق ، اليافعي مرآة الجنان : ١٩٣/٣ .

(٧٣) انظر : أبو الفدا ، المختصر في اخبار البشر : ٢٢٦/٢ ، ذيل تاريخ دمشق : ١٨٣ ١٨٧ .

(٧٤) نفس المصدر والمكان السابق .

موقف طغتكين من الغزو الصليبي لمدينة صور :

كانت صور احدى اهم المدن الساحلية لبلاد الشام ، والتابعة للنفوذ الفاطمي في مصر وكان واليها عزالدين الملك الاغر . وفي سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١م هاجمها الصليبيون ورغبوا في احتلالها لما تتمتع به من موقع ستراتيجي مهم . وقد ابدى أهالي المنطقة صلابة كبيرة في الدفاع عن مدينتهم ، في حين ارسلوا بطلب النجدة من مصر ، ولما يئسوا من وصول الاسطول المصري الذي كان من المتوقع أن يأتي لنجدتهم (٧٥) استماتوا في القتال ، واشغلوا الصليبيين عدة أيام حتى تمكنوا من الاتصال بالشخصية القديرة الوحيدة التي كانت معروفة في بلاد الشام الا وهو طغتكين (٧٦) ويقال ان امير مدينة صور بعث إلى طغتكين عشرين الف دينار مقابل امداده بخمسمائة من الرماة ، كما انه بعث اليه بعض التحف الموجودة في صور خوفاً من ضياعها أو سقوطها بيد الصليبيين عند تقدير اسوأ الاحتمالات (٧٧) .

وقد استجاب طغتكين لنداء اهالي صور فجمع عدته وتوجه نحو مدينة بانياس ، حيث جعلها مركزا لانطلاقاته ضد الصليبيين ، وبعث منها ببعض سراياه من الرجالة والخيالة غير ان تلك العدة لم تتمكن من الدخول إلى المدينة لشدة حصار الصليبيين لها . فعمد طغتكين إلى فرض حصار اقتصادي على القوات الصليبية المحاصرة لمدينة صور ومنع ايصال الميرة اليهم عن طريق

---

(٧٥) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ١٨٣ – ١٨٧ .

(٧٦) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ : ١٠/٤٨٨ – ٤٩٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٢/ ١٧٣ .

(٧٧) انظر : العريني ، الشرق الاوسط : ١/٣١٣ ، والذي اعتقده ان امير صور بعث بتلك المبالغ الضخمة لطغتكين مقابل مساعدته لانه كان يظن أن طغتكين سوف لن ينجده لان صور كانت تابعة للفاطميين . لذلك كانت تلك المبالغ بمثابة اغراءات لطغتكين تحفزه في المسير إلى صور ، وتمنع من ناحية ثانية تدخله في شؤون المدينة الداخلية بعد طرد الصليبيين على أعتبار أنه أخذ أجره مقدماً .

البر الا أن خطة طغتكين لم تنجح لان الامدادات اخذت تصل إلى الصليبيين عن طريق البحر . فاضطر إلى مهاجمة مدينة صيدا ، التي كانت تحت النفوذ الصليبي وكانت تمد الصليبيين المحاصرين لصور بالاعتدة والتموينات . وذلك لقطع تلك الامدادات من ناحية ، وليجبر الصليبيين المحاصرين لصور على ترك الحصار والعودة إلى صيدا لانقاذها وقد تمكن من كسب الموقف واغراق عدد من المراكب الصليبية التي كانت ماكثة على ساحل صيدا (٧٨) .

ادت هذه الخطة ، التي قام بها طغتكين ، إلى انسحاب الصليبيين من حصار مدينة صور ، خاصة وان اهالي المدينة تمكنوا من احراق الابراج التي نصبها الصليبيون على سور المدينة (٧٩).

والذي يبدو من دراسة المصادر المعاصرة ان حكام صور كانوا غير مطمئنين من نوايا طغتكين ، وكانوا يظنون به ظن السوء ، رغم المساعدات الجليلة التي قدمها لهم وقد ابدى طغتكين — على مايبدو — تحفظه من سوء مقاصدهم نحوه وخاطبهم صراحة بقوله : « انا مافعلت (ويقصد مساعدته لهم) الا أنلله تعالى ، لارغبة إلى حصن ولا مال ، ومتى دهمكم عدو جئتكم بنفسي ورجالي ... » (٨٠) وبهذا القول عبر طغتكين لاهالي صور عن صدق نواياه تجاههم ، واوضح لهم مقاصده الشريفة البعيدة عن الاطماع الدنيوية ، وا ظهر لهم رغبته الصادقة في مساندتهم والدفاع عن بلدهم ضد الصليبيين في المستقبل . وقد اعجب المؤرخ العربي ابن تغرى بردى بصدق طغتكين في تصريحه السابق فعلق عليه بقوله : « فلله دره من ملك » (٨١) .

وقد اقتنع اهالي صور بعد ذلك بنوايا طغتكين ، لذلك طلبوا منه النجدة في المرة الثانية سنة ٥٠٦ هـ / ١١١٢م ، عندما علموا بأستعدادات الصليبيين

---

(٧٨) مرآة الزمان : ٣٨/٨ — ٣٩ .

(٧٩) نفس المصدر والمكان السابق .

(٨٠) سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق : ٣٨/٨ — ٣٩ ، ذيل تاريخ دمشق : ١٨١.

(٨١) النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة : ١٨٣/٥ .

لغزو مدينتهم ، وطلبوا الانضمام اليه . وقد جاء في رسالة حاكمها عز الملك تنازلا صريحاً لطغتكين عن مدينة صور والا فإنه سوف يسلمها للصليبيين (٨٢) ولذلك كله ارسل طغتكين لهم عدداً من الجند بقيادة الامير مسود الذي تسلم المدينة منهم ، فهدأت احوالهم وطابت نفوسهم . (٨٣)

ولما كانت مدينة صور تابعة للخلافة الفاطمية في مصر ، لذلك لم يشأ طغتكين إساءة العلاقة معها ، لان مهمته كانت في صد الهجوم الصليبي الذي كان يستهدف بلاد الشام ، لافي توريط نفسه في حروب داخلية ضد القيادات الاسلامية المتواجدة في المنطقة آنذاك . لذلك كله عمد إلى مراسلة الفاطميين في مصر وأوضح لهم حسن مقاصده ونواياه بدفاعه عن البلد ضد الصليبيين ، وإنه تسلم البلد برغبة اهالي المدينة وأميرها وانه « متى وصل اليهم من يذب عنهم سلمتها (اي مدينة صور) اليه » (٨٤) كما اكد طغتكين للفاطميين ضرورة الاهتمام بمدينة صور وتقويتها وارسال المواد الغذائية اليها . (٨٥)

وقد اقتنع الفاطميون بنوايا طغتكين الحسنة في صور ، فارسلوا له عدداً من السفن محملة ببعض المواد والسلع المهمة التي يحتاجها اهالي صور ، كما بعثوا له ولولده ولامير مدينة صور كثيرا من الخلع والهدايا تكريماً لجهودهم ، وإعترافاً منهم بما حصل في المدينة من تطورات . (٨٦)

اما مستقبل مدينة صور ، فأن الامير مسعود والي طغتكين عليها ، قد أحسن التصرف فيها . فقد عمد إلى تقويتها والاكثار من عساكرها والاهتمام بشؤونها الاقتصادية حتى رخصت الاسعار فيها ، مما دفع بلدوين — ملك

---

(٨٢) انظر : ابن الاثير ، الكامل : ١٠/٦٢٠ — ٦٢٢ .

(٨٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ١٨١ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ٨/٤١ — ٤٢.

(٨٤) مرآة الزمان : ٨/٤٢ .

(٨٥) ذيل تاريخ دمشق : ١٨٢ .

(٨٦) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ٨/٤٥ .

بيت المقدس الصليبي – إلى ان يطلب مهادنته والمسالمة على حسم النزاع بين الطرفين (٨٧).

غير ان الظروف العامة لمدينة صور تبدلت ، لان الخليفة الفاطمي الافضل قرر استعادة سلطانه على صور فارسل اليها في سنة١١٢٢م أميراً من جانبه ، بعد ان عزل الامير مسعود وارسله مكرماً إلى طغكتين ، الذي قرر من جانبه عدم منازعة الفاطميين لان الخطر الصليبي ازداد في تلك الفترة ، خاصة وان اعداد كبيرة من القوات الصليبية وصلت إلى بيت المقدس من البنادقة. وقد وقّع الجميع في اوائل سنة ١١٢٤ م ، في مدينة عكا،معاهدة كانت نتيجتها ان تحرك الجيش الصليبي إزاء الساحل قاصداً صور لاحتلالها (٨٩) .

ولما كانت مدينة صور تقع في شبه جزيرة لم يربطها بالبر الا برزخ ضيق، لذلك فإن مياه الشرب كانت تأتي اليها عن طريق سقاية ممتدة من البر ، وكان هذا نقطة ضعف في المدينة إستغله الصليبيون فعمدوا إلى سد تلك السقاية، فانقطع الماء عن المدينة ، ومن جهة البحر فإن سفن البنادقة كانت قد احكمت محاصرتها لصور مما ضيق على اهالي المدينة كثيراً ومنع وصول الامدادات اليهم فاضطر الفاطميون إلى القيام بعدة غارات خارج المدينة بأن هاجموا القدس وبعض قرى صليبية مجاورة بقصد إجبار الصليبيين عن التخلي عن صور ،غير ان تلك المحاولات باءت بالفشل. فعمد طغتكين إلى مراسلة الصليبيين وعرض عليهم تسليم المدينة اليهم بعد ان يؤمن على كل أفرادها وامتعتهم، وبعد ان يسمح لمن أراد منهم مغادرتها بأمان . فوافق الصليبيون على تلك الشروط ، وبذلك فتحت مدينة صور ابوابها للغزاة . وكان ذلك في ٢٣ جمادي الاولى سنة ٥١٨ هـ / ٧ تموز سنة ١١٢٤ م بعد ان بقيت صامدة بوجه اعدائها قرابةخمسة شهور من دون اية مساعدات (٩٠).

(٨٧) انظر : مرآة الزمان : ٤٥/٨ .

(٨٩) انظر : رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية : ٢٦٧/٢ – ٢٦٨ .

(٩٠) لمعرفة المزيد عن سقوط مدينة صور بيد الصليبيين ، واحوال البلد بعد عودته للنفوذ الفاطمي انظر : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢١١ ؛ الكامل : ٦٢٠/١٠ – ٦٢٢ ؛ دول الاسلام ٣١/٢ ؛ شذرات الذهب : ٥٧/٤ ؛ تاريخ الحروب الصليبية : ٢٦٨/٢ – ٢٧٦.

ولقد كان لسقوط مدينة صور بيد الصليبيين بالغ الاثر في نفوس المسلمين عامة ، كما كانت خسارة مني بها اهالي الشام خاصة ، لان صور من المؤاني المهمة الواقعة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، ويمتاز بموقعه التجاري الممتاز . (٩١)

محاولات الصليبيين الاستيلاء على دمشق وفشلهم :-

بعد ان ملك الصليبيون مدينة صور ، ازدادت ثقتهم بانفسهم ، فاستجمعوا قواهم وتوجهوا صوب المناطق الداخلية لبلاد الشام ، وكان هدفهم الاول السيطرة على مدينة دمشق لما تمتاز به هذه المدينة من موقع ممتاز . فهي تصل بين العراق والشام من ناحية كما انها تقع على الطريق التجاري الممتد من الفرات إلى النيل (٩٢) هذا بالاضافة إلى ان حكام دمشق كانوا اقوياء وكانوا بقواتهم العسكرية احدى اهم القوى الاسلامية التي يهابها الصليبيون في بلاد الشام ، نظرا لما قامت به من انتصارات مسبقة على الصليبيين من ناحية وامدادها بالتموين المستمر للمدن والقلاع الاسلامية الاخرى ، التي كان الصليبيون يحاولون الاستيلاء عليها ، من ناحية ثانية .

وكان اول عمل بدأ به الصليبيون ، هو محاولاتهم السيطرة على القلاع المجاورة للمدينة او الواقعة على طريقها ليتسنى لهم تأمين خطوطهم الخلفية . فتقدموا نحو حصن رفنية ،من اعمال مدينة حمص ، سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م في محاولة للاستيلاء عليه . غير ان طغتكين فاجأهم ليلا بقواته ، وتمكن من كبسهم وقتل العديد منهم ، ثم عاد إلى مدينة دمشق مسرورا مع عدد من الاسرى الصليبيين (٩٣).

---

(٩١) العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ٣٤١/١ .

(٩٢) انظر : ارنست باركر ، الحروب الصليبية : ٥٠ .

(٩٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ١٩٢ ، ابن الوردى ، تتمة المختصر : ٢٣/٢، الكامل في التاريخ : ٥١٢/١٠ ، المختصر في اخبار البشر : ٢٢٩/٢ .

ولما كانت رفنية ذات موقع ممتاز ، بحكم وقوعها على نهر العاصي فيما بين حمص وحماة ، لذلك عمد (بونز) امير طرابلس الصليبي إلى انشاء قلعة بعرين بالقرب من رفنية ، لتكون محطة لشن الغارات منها على الثانية (٩٤). وقد نجح الصليبيون فعلا في محاولاتهم وتمكنوا من السيطرة على حصن رفنية سنة ٥٢٠هـ ١١٢٦م بعد ان شنوا الكثير من الهجمات عليه وضايقوا اهله (٩٥).

وبعد أن امن الصليبيون طريقهم المار بحمص وحماة تقدموا لمهاجمة مدينة دمشق ، ووصلوا إلى منطقة حوران القريبة منها وتمكنوا من قطع الطرق المارة بدمشق شمالا . وفي تلك الاثناء كان طغتكين يعد عدته للحرب ويطلب الامداد من الامراء المسلمين في ديار بكر .وما ان وصلته الامدادات حتى خرج لملاقات الصليبيين فالتقى معهم في ذي الحجة من سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٢٦م (٩٦) وكانوا بقيادة بلدوين — عند مرج الصفر القريب من تل الشقب والواقع إلى الجنوب الغربي من مدينة دمشق بحوالي عشرين ميلاً (٩٧) .

وفي تلك المنطقة — مرج الصفر — دارت معركة بين الطرفين دلت بداياتها إلى نصر الصليبيين وهزيمة المسلمين . فقد انسحب طغتكين وجماعة من عسكره إلى خارج ساحه المعركة ، وظن انها الهزيمة فلحق به الصليبيون تاركين معسكرهم وخيامهم واموالهم بدون حامية قوية فالتافت العساكر التركمانية التي لم تنسحب بعد من ساحة المعركة إلى المعسكر الصليبيين وتمكنت من السيطرة عليه وغنيمة مافيه . لذلك رجع الصليبيون من ملاحقتهم الفاشلة ولما وصلوا إلى معسكرهم ، فزعوا لما حل بهم فهربوا منهزمين «لايلوى الاخ على اخيه» (٩٨) وبذلك عادت هزيمة المسلمين إلى نصر حيث ظن

---

(٩٤) انظر :سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية : ٥٢٨/١ .

(٩٥) انظر : ابن الأثير ، الكامل : ٦٤٠/١٠ ، ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ٢١٦.

(٩٦) انظر : الكامل في التاريخ : ٦٣٩/١٠ ، مرآة الزمان : ١١٦/٨ .

(٩٧) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية : ٢٧٨/٢ .

(٩٨) ذيل تاريخ دمشق ٢١٢ — ٢١٤ ؛ الكامل في التاريخ : ٦٣٩/١٠ ؛ تاريخ العبر: ١٥٥/٥.

الصليبيون ان هزيمة المسلمين مكيدة وان عساكرهم قد احاطت بهم من كل جانب .

ولم تنقطع محاولات الصليبيين للسيطرة على دمشق ، اذ سرعان ماتجدد نشاطهم بعد وفاة اميرها طغتكين سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٩ م . حيث استجمع الصليبيون قواهم وداهموا المدينة وكان قد تولى الامر انئذ الامير تاج الملوك بورى بن طغتكين ، الذي بدأت الاضطرابات الداخلية تظهر في عهده . وذلك لاستفحال نشاط الدعاة الاسماعيلية الجدد (الحشيشية) في مدينة دمشق ، نظرا لمساندة الوزير الدمشقي المزدقاني لهم ، بالاضافة إلى سيطرتهم على حصن بانياس (٩٩).

وقد وجد الصليبيون في الدعاة الاسماعيلية خير معين لهم من داخل مدينة دمشق يستطيعون بواسطتهم اسقاط المدينة بايديهم ، لذلك اتفق بلدوين — ملك بيت المقدس الصليبي — مع الاسماعيلية ، اتفاقاً سريا ، تعهد بموجبه الاسماعيلية بتسليم مدينة دمشق للصليبيين ، على ان يتنازل الصليبيون لهم عن مدينة صور . وكادت المؤامرة ان تتم لولا ان كشفها الامير بورى ، فأمر بالتنكيل بالاسماعيلية وتشريدهم ، كما قتل الوزير المزدقاني وكان ذلك في عام ٥٢٣ هـ (١٠٠) فالتجأ الاسماعيلية — نتيجة لتشريدهم من مدينة دمشق — إلى الحصون الصليبية وتنازلوا لهم عن مدينة بانياس (١٠١) مما زاد في قوة الصليبيين في منطقة الشام ، ودفعهم إلى التصميم على مهاجمة مدينة دمشق .

ولم تمض سنة واحدة على التحالف السابق بين الاسماعيلية والصليبيين وسقوط مدينة بانياس بايديهم حتى اخذ الصليبيون يجمعون قواهم من جديد في محاولة لحصار دمشق واسقاطها بأيديهم ، ففي ذي الحجة من سنة ٥٢٣هـ

(٩٩) انظر : العريني ، الشرق الاوسط : ٣٤٩/١ .
(١٠٠) الكامل في التاريخ : ٦٥٧/١٠ — ١٥٨ .
(١٠١) ابن تغري بردي ، مرآة الزمان : ٥٢٣/٨ — ٥٢٤ .

/ ١١٢٨ م توجه مايقارب الستين الف مقاتل صليبي مابين فارس وراجل نحو دمشق من مدينة القدس وانطاكيا وطرابلس وحصن الرهاوالمناطق الساحلية الاخرى الخاضعة للصليبيين (١٠٢) .

ورغم مافي العدد السابق من مبالغة واضحة في تضخيم عدد القوات الصليبية لعدم وجود احصائيات دقيقة للمقاتلين من ناحية ، واعتماد بعض المؤرخين العرب المبالغة في ذكر اعداد جيوش الاعداء لتعظيم انتصاراتهم عليهم من ناحية اخرى — فان المدن الكثيرة التي اشتركت في الهجوم على دمشق والاعداد الضخمة من المقاتلين يدل من غير شك ، على رغبة الصليبيين الصادقة في اسقاط دمشق بأيديهم نظرا لاهميتها الستراتيجية لذلك نراهم قد اعدوا لها كل قواهم ، واستجمعوا لها كل طاقاتهم .

اما موقف امير دمشق (بورى) من هذا التجمع الصليبي فقد كان موقفاً ايجابياً ، اعلن على اثره مايسمى (بالنفير العام) فجمع قواته من العرب والتركمان، كما ارسل إلى الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي في بغداد ، جماعة من وجهاء دمشق لطلب النجدة واحضار المساعدة ،منهم الفقية عبد الوهاب الحنبلي (١٠٣) .

والذي يبدو ان اولئك الرسل قد أثاروا حماس الناس الديني في بغداد ودفعوهم إلى كسر منبر الجامع الذي كان مركز تجمع المسلمين في ايام الجمع ، حيث يتواجد الخليفة فيه وتلقى منه بيانات الدولة الرسمية . يقول ابن كثير « وهموا بكسر منبر الجامع ، حتى وعدهم (اى الخليفة العباسي) بانه سيكتب إلى السلطان يبعث لهم جيشاً يقاتلون الفرنج فسكنت الامور ...) (١٠٤) .

وفي هذا مايدل على تباطؤ السلطة في بغداد في امداد العون السريع لدمشق فاضطر الفقية عبد الوهاب الحنبلّي إلى استخدام نفوذه الديني ، فاثار حماس

(١٠٢) ابن قاضي شهبه ، الكواكب الدرية في السيرة النورية : ٩٦ .
(١٠٣) ابن تغري بردي ، مرآة الزمان : ٨/٥٢٣ — ٥٢٤ .
(١٠٤) ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٢/٢٠٠ .

الناس ودفعهم إلى الهجوم على المسجد الجامع ، تعبيرا عن سخطهم اتجاه الخلافة العباسية ، وتأييدا من جماهير بغداد لاهالي دمشق لترابط مصير الامة الواحد ، رغم اختلاف السلطات .

اما الموقف في دمشق، فقد كان بطولياً رغم عدم وصول الامداد اليهم ، لان اهالي دمشق استعدوا للمعركة، وعملوا على تجميع العدد والاسلحة وآلات الحرب، كما عمدوا الي تحصين نقاط الضعف في اسوار المدينة (١٠٥) وكانت الفرصة المناسبة للدمشقيين عندما خرجت فصائل من جيوش الصليبيين بقيادة وليم بور إلى حوران لجمع ماتحتاجه من المؤن (١٠٦) فما كان من بورى الا أن انقضى عليهم بقواته، حيث دارت معركة رهيبة قتل فيها اكثر من خمس الاف صليبي من بينهم بيمند اميرانطاكية (١٠٧) . ثم عادت جيوش دمشق «ولم يمسهم قرح »(١٠٨) بعد ان «غنموا غنيمة لاتحد ولاتوصف» (١٠٩) .

ومن ناحية ثانية فقد كانت الظروف الطبيعية عاملا مساعداً من العوامل التي اكملت النصر على الصليبيين اذ ان بلدوين لما علم بهزيمة اتباعه قرر المسير إلى حوران لانقاذ الموقف غير ان برودة الجو وهطول الامطار الغزيرة ، ووعورة الارض ادت به إلى الانسحاب عن دمشق والعودة إلى القدس لان عساكره لم تتمكن من الاستمرار في حصار البلد في تلك الظروف الطبيعية الصعبة مع قلة الارزاق (١١٠).

هكذا لعب اهالي دمشق بقيادة تاج الدين بورى، دورهم الكبير في صد الهجوم الصليبي، كالدور الذي لعبوه من قبل في عهد طغتكين حيث احبطت محاولات الصليبيين الهادفة إلى السيطرة على مدينة دمشق.

---

(١٠٥) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق :

(١٠٦) العريني الشرق الاوسط : ٣٤٩/١ – ٣٥٠ .

(١٠٧) ابن كثير ، البدايه والنهايه: ١٢ / ٢٠٠

(١٠٨) ابن الاثير الكامل : ٦٥٧/١٠ – ٦٥٨، الذهبي ، دول الاسلام : ٣٣/٢ .

(١٠٩) ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية : ٩٦ انظر العريني الشرق الاوسط : ٣٤٩/١ – ٣٥٠ .

(١١٠) ابن منقذ ، الاعتبار : ٩٤ – ٩٥ .

غير ان تلك المحاولات لم تنته اذ سرعان ماتجددت في عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م، حيث تحالف الامراء الصليبيون من جديد وعمدوا إلى محاصرة المدينة . فقد راسل امير بيت المقدس الصليبي من في اوربا لمساندة حتى لايتكرر الفشل من جديد. وكان الامر مناسباً عندما وصلت الحملة الصليبية الثانية إلى بلاد الشام ، حيث عقد الامير بلدوين الثالث اجتماعاً كبيراً في مدينة عكا في ٢٤ تموز ١١٤٨م شارك فيه كل من لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث امبراطور المانيا، بالاضافة إلى عدد من الامراء الصغار والدوقات «للتشاور في النتائج التي تسفر عن هذا الحجيج الضخم بانجاز هذه الاعمال الضخمة ومد اطراف المملكة» (١١١).

والحقيقة ان ذلك الاجتماع كان اجتماعاً ضخماً ، فقد إشترك فيه ، بالاضافة إلى الملوك السابقين كل من مقدمي الداوية والاسبتارية وكبار موظفي الكنيسة ، عدا أمراء الرها وانطاكيا وطرابلس (١١٢) . وبلغ عدد عساكرهم المحتشدة مالايقل عن خمسين الف مقاتل (١١٣) مما دفع ببعض المؤرخين إلى القول بأن ذلك الاجتماع «كان اجتماعاً بالغ الروعة» (١١٤).

وقد قرر في ذلك الاجتماع الضخم الاتفاق على معاجمة مدينة دمشق في اول تموز من سنة ١١٤٨م. نظراً لما تحتله دمشق من موقع ممتاز في التحكم في الطريق الواصل بين شمال افريقيا وبلاد شمال الشام والشرق (١١٥). ذلك الموقع الذي نشط فيها الحركة التجارية وجعلها من المدن الرئيسة المهمة في بلاد الشام، علماً بأن الدمشقيين كانوا قد كبدوا الصليبيين خسائر فادحة عندما أرادوا إحتلال مدينتهم قبل سنة ١١٤٨م — كما تبين ذلك من قبل — هذا

---

(١١١) العريني ، الشرق الاوسط : ٥٦٤/١ .

(١١٢) انظر : عاشور ، الحركة الصليبية : ٦٣١/٢ .

(١١٣) العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ٥٦٤/٢ — ٥٦٥ نقلا عن
Brry : the secord Crujader, P. 160.

(١١٤) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية : ٤٥٢/٢ .

(١١٥) المرجع السابق : ٤٥٢/٢ .

بالاضافة إلى ان دمشق كانت من اهم المدن التي تقدم العون والمساعدات للمدن والقلاع الاسلامية المجاورة التي كانت تتعرض للغزو الصليبي ، ولذلك فإن السيطرة عليها، يعني بنظر الصليبيين، تسهيل مهمة السيطرة على المدن والقلاع الاخرى المجاورة.

وهكذا فإن روح التحدي واخذ الثأر والوقع الممتاز لمدينة دمشق حفز الصليبيين إلى التقدم نحوها في ١٥ تموز سنة ١١٤٨م بقصد إحتلالها، وقد احاطوا بالبساتين التي كانت تقع إلى شرق المدينة، ثم تمكنوا منها بعد ان سيطروا على بعض القرى الامامية كقرية المزة والربوة في الرابع والعشرين من نفس الشهر. (١١٦)

وقد ظن اهالي دمشق، بعد ذلك التقدم الصليبي ، انهم خاسرون ان لم يتداركوا الموقف، فارسل على الفور حاكم المدينة رسله إلى نوابه في المدن والقلاع القريبة يطلب النجدة منهم ، فضلا عن ارساله بالرسل إلى نور الدين محمود زنكي واخيه سيف الدين غازي حاكمي حلب والموصل ، . قد اتته اعداد كبيرة من الجند من الابواب الشمالية (١١٧) انضوت تحت لوائه، تمكن بهم من اعادة الثقة إلى نفوس الدمشقيين والقيام بهجوم معاكس، بشكل غارات خاطفة، ضد الصليبيين (١١٨)، كبدتهم خسائر فادحة اضطرتهم إلى مغادرة البساتين، والتحول عنها إلى جهة الشرق. وكان ذلك من اهم اسباب اندحارهم.لان سور المدينة كان شديد الحصانة من جهة الشرق بالاضافة إلى قلة المياه، التي افتقدها الصليبيون في الموقع الجديد (١١٩).

وفي الوقت الذي بدأت فيه قوات الدمشقيين من مرحلة الدفاع إلى الهجوم وصول البشائر بتقدم عساكر الموصل وحلب صوب دمشق لانقاذ الموقف ،

---

(١١٦) ابوشامة : الروضتين : ٥٢/١ ؛ العريني ، المرجع السابق : ٥٦٥/١ .

(١١٧) انظر عاشور ، الحركة الصليبية : ٦٣٢/٢ ، العريني ، الشرق الاوسط : ٥٦٦/١.

(١١٨) انظر : الروضتين : ٥٢/١ .

(١١٩) العريني ، الشرق الاوسط : ٥٦٦/١ ، رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية : ٤٥٤/٢.

كانت الجبهة الصليبية قد دبَّ فيها بعض الخلافات بين قادتها، حول مستقبل مدينة دمشق التي كانوا يأملون السيطرة عليها (١٢٠) هل ستكون مملكة صليبية جديدة ومستقلة، ام تابعة لمملكة بيت المقدى؟ وفي هذه الاثناء لعب (معين الدين أنر) دورة السياسي والدبلوماسي في السيطرة على الموقف بمراسلته الاطراف المختلفة ذات العلاقة والاطماع بدمشق.

كانت البداية بعدم رده الجواب على الكتاب الذي ارسله اليه سيف الدين غازي – اتابك الموصل – الذي طلب منه تسليم المدينة بيد نوابه في اثناء مكوثه بالشام، لتكون له ملجأ في حالة خسارته الحرب مع الصبين . وفي حالة الظفر، فأن سيف الدين غازي سيترك البلد لاهله. وقد جاء في نص الكتاب الذي ذكره ابن الاثير مايلي: «قد حضرت ومعي كل من يحمل السلاح في بلادي، فأريد ان يكون نوابي بمدينة دمشق لاحضر والقي الفرنج فان انهزمت دخلت انا وعسكرى البلد واحتمينا به، وان ظفرت فالبلد لكم لاانازعكم فيه»(١٢١).

وفي هذا مايدل على عدم اطمئنان اتابك الموصل من زوايا ومخططات معين الدين انر – اتابك دمشق – كذلك فان انر كان غير راغب بدخول قوات الجزيرة التابعة لنور الدين محمو د ولاخيه سيف الدين غازي مدينة دمشق لانه كان «« يدرك انه اذا احتلت جنودهما قلعة دمشق مرة فلن يتركوها للابد » (١٢٢) .

لذلك قرر انر عدم مراسلة سيف الدين غاري ، وصمم على منازلة الصليبيين لوحده ،وابتدأ ذلك بمراسلتهم لترهيبهم تخويفهم ،عله يفيدمن ذلك. وقد جاء في بعض مراسلاته لهم : « ان ملك الشرق قد حضر فان رحلتهم والا سلمت البلد اليه وحينئذ تندمون . وارسل إلى فرنج الشام يقول لهم :

(١٢٠) انظر حول نزاعات الصليبيين بسبب مستقبل مدينة دمشق سنة ١١٤٤م : رنسيمان : ٢/٤٥٥ – ٤٥٨ .

(١٢١) الكامل في التاريخ : ١١/١٣٠ .

(١٢٢) عاشور ، الحركة الصليبية : ٢/٦٣٤ .

باي عقل تساعدون هولاء علينا وانتم تعلمون انهم ان ملكوا دمشق اخذوا ما بايديكم من البلاد الساحلية : واما انا فان رايت الضعف عن حفظ البلد سلمته إلى سيف الدين وانتم تعلمون انه ان ملك دمشق لايبقى لكم معه مقام في الشام » (١٢٣) :

وبفضل المراسلات السابقة تمكن انر من اقناع نصارى الساحل الشامي والصليبيين من الاوربيين الذين استقروا في الشام بالتخلي عن مساعدتهم للصليبيين القادمين من الغرب وبالذات الالمان فمنحهم انر ،حصن بانياس مكافأة لهم خاصة بعد أن ارعبوا ملك الالمان من قوة ومقدرة سيف الدين غازي ، واجبره للعودة إلى بلاده (١٢٤) وقد تبع الالمان بالانسحاب عساكر كنراد الثالث إلى القسطنطينية ، ثم عودة لويس السابع إلى فرنسا سنة ٥٤٤هـ ١١٤٩م (١٢٥) .

وقد وصف الاصفهاني ذلك الانسحاب بقوله : « ورحلو عنها خائبين خاسئين خاسرين » (١٢٦) .

وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثالثة في السيطرة على مدينة دمشق ، ويتبين من النصوص السابقة ان اسباب ذلك الفشل يعود إلى مايلي : —

(١) الخطأ في سياسة الامراء الصليبيين (لويس وبلدوين كنراد) الذين اصدروا اوامرهم بتحول عساكرهم من جهة الجنوب إلى جهة الشرق ، ليطلعوا على تحركات الدمشقيين عند حصارهم دمشق في تموز في سنة ١١٤٨م. وقد جاء ذلك التقدير خاطئاً ، لان الموقع الجديد لم يكن يحوي المياه الوفيرة، بالاضافة إلى شدة حصانه سور المدينة من تلك الجهة .

---

(١٢٣) الكامل في التاريخ : ١٣٠/١١ ، وانظر : ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية : ١٢٦ – ١٢٩ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب : ١١٧/٤ – ١١٨ .

(١٢٤) انظر : الكامل في التاريخ : ١٣١/١١ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر : ٤٧/٢ – ٤٨. سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ١٩٧/٨ – ١٩٨ .

(١٢٥) انظر : ارنست باركر ، الحروب الصليبية : ٧٦ .

(١٢٦) البغدادي ، تاريخ دولة السلجوق : ٢٠٥ .

(٢) الانشاق الذي حصل بين القادة والامراء الصليبيين ، حول مدينة دمشق بعد احتلالها .فامراء بيت المقدس رغبوا ان تكون تابعة لمملكتهم .في حين اتفق الكونت فلاندر مع لويس وبلدوين على أن يكون الاول اميرا عليها بعد تشكيل مملكة جديدة في دمشق .

(٣) ما ابداه اهالي دمشق من بسالة وشجاعة في الدفاع عن مدينتهم ، شباباً ومشيباً ، فقد قاموا بعدة غارات على مواقع الصليبين كبدوهم فيها خسائر كبيرة ، وكان يشترك في القتال الفقهاء وعلماء الدين والمسنون من الرجال. فهذا الشيخ الفندلاوي الطاعن في السن يخرج ليقاتل الاعداء فيمنعه انر من القتال ويحاول اقناعه بانه رجل كبير طاعن في السن فيأبى الا مقاتلة الاعداء والموت في سبيل الله دفاعاً عن الوطن ، ثم يخرج إلى ساحة المعركة فيقتل فيدفع من بعده بالكثير من الشباب إلى التقدم لمقاتلة الاعداء بعزيمة قوية (١٢٧) .

(٤) السياسة الجيدة التي اتبعها معين الدين انر ، في مشاغله اعدائه ومراسلتهم بعد ان رغبهم وخوفهم . وكان ذلك من الاسباب الرئيسة التي فرقت جموع الصليبيين في الشام . وقد كانت مدينة بانياس ضحية تلك السياسة لان انر تنازل عنها للصليبين .

ورغم أن انر أنقذ مدينة دمشق بتنازله عن بانياس للصليبيين لان الاولى أهم من الثانية غير أنه كان بامكانه استخدام سياسة اشد حكمة بمراسلته سيف الدين غازي ، والاتفاق معه عله يقنع ببانياس او بغيرها من المدن ، وعند ذلك ستكون عساكر بلاد الجزيرة والشام واحدة وعندها سيخسر الصليبيون المعركة لامحالة ، وستكون بانياس وغيرها من المناطق الاخرى تحت سيطرة المسلمين ، لاتحت سيطرة الصليبيين . لانهم كانوا اعرف ببلادهم من اعدائهم ، كما أن خطوط تموينهم ستكون متصلة وقريبة، بينما ستكون خطوط تموين اعدائهم غير متصلة وبعيدة ومعرضة للدمار بسبب بعد المسافة بين اوربا وبلاد الشام ، وبسبب المصالح المتضاربة بين بعض ملوك امراء الصليبيين في اوربا وبلاد الشام .

(١٢٧) انظر : عن قصة الشيخ الفندلاوي ومقتله : ابن الاثير ، الكامل : ١٣١/١١ .

كما كان بامكان انر ان يرفع شعار الامة الواحدة والهدف الواحد ، بدلا من رفعه لشعار الاقليمية الضيقة في الدفاع عن مدينته . لان شعار الامة الواحد سوف يدفع بالمسلمين من أهالي مدن الشام والجزيرة عامة إلى مساندته ، رغم اختلاف مصالح الامراء . لان الحرب الصليبية الاولى ولدت رد فعل عنيف لدى المسلمين ، وكونت لديهم شعورا موحدا في الدفاع عن ارضهم ، كانت نتيجته تجمهر الناس في المحلات العامة في كل من دمشق وحلب والموصل وديار بكر ، الذين اخذوا يدعون للحرب ومساندة اخوانهم المسلمين في القدس والساحل الشامي ضد الصليبيين .

لذلك فان هذا الشعور الاصيل لدى الامة الواحدة سوف يدفع بالامراء والحكام من المسلمين الاقليميين إلى التنازل عن مصالحهم قليلا خوفاً من شعوبهم (١٢٨). ولهذا فان سياسة انر الا قليمية كانت خاطئة . وكان عليه أن يتنازل عن مصالحه فيوقض الحمية في نفوس المسلمين عامة ، وعندها سيكون القائد المنتظر الذي سيحقق للامة اهدافها ، كما فعل مودود حاكم الموصل ، ومن بعده صلاح الدين الايوبي .

اما نتيجة هجوم الصليبيين على دمشق ، فقد كانت سلبية ، لانهم لم يحققوا أي هدف ولم يخرجوا بنتيجة سوى الخذلان وخسران الهيبة في منطقة الشام فقد « تبددت الاسطورة التي نشأت من الحرب الصليبية الاولى ، والتي تجعل من فرسان الغرب اسطورة لاتقهر » (١٢٩) ولذلك فقد انتقد الكثير من المؤرخين الاوربيين ذلك القرار الذي صدر في عكا سنة ١١٤٨ م والذي دفع بالجيوش الصليبية إلى التوجه نحو دمشق لاحتلالها ، فقد اعتبره ارنست باركر « مخالفا لقواعد الادب واللياقة» (١٣٠)، بينما وصمة اخرون بانه قرار « اتسم بالحماقة المطلقة » (١٣١) .

(١٢٨) انظر : دريد عبد القادر نوري ، سياسة صلاح الدين الايوبي : ٦١ ، ٢٥٣ – ٢٥٥
(١٢٩) العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ١/٥٧٠ – ٥٧١ .
(١٣٠) الحروب الصليبية : ٧٦ .
(١٣١) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية : ٢/٤٥٢ .

قائمة المصادر والمراجع

آ ـ المصادر القديمـــة : ـ

ابن الأثير ،عز الدين ابي الحسن بن محمد (ت : ٦٣٠هـ) .
الكامـل في التاريخ (بيروت : ١٩٦٥) .

البنداري ،الفتح بن علي بن محمد (ت: ٦٤٣هـ) .
،تاريخ دولة آل سلجوق (القاهرة : ١٩٠٠) .

ابن تغرى بردي،جمال الدين يوسف (ت : ٨٧٤هـ)
النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهزة (القاهر: د/ت)

ابن خلكـان ،شمس الدين أحمد بن محمد (ت : ٦٨١هـ)
وفيات الاعيان وابناء الزمان (بيروت : د./ت).

ابن خلـدون ،عبدالرحمن (ت : ٨٠٨هـ)
العبر وديوان المبتدأ والخبر ... (القاهرة : ١٢٨٤هـ) .

أبو شامة ، شهاب الدين (ت : ٦٦٥هـ)
الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية(بيروت: د./ت).

ابـن العمـــاد ،عبدالحي الحنبلي (ت : ١٠٨٩هـ)
شذرات الذهب في اخبار من ذهب (القاهرة : ١٣٥٠هـ).

ابن قاضي شهبة ،بدر الديـن (ت : ٨٧٤ هـ)
الكواكب الدرية في السيرة النورية (بيروت : ١٩٧١) .

ابن القلانسي ابي يعلى حمزة (ت : ٥٥٥هـ)
ذيل تاريخ دمشق (بيروت : ١٩٠٨ م) .

أبـو الفـــدا ،عماد الدين اسماعيل (ت: ٧٣٢ هـ)
المختصر في اخبار البشر (القاهرة : ١٣٢٥هـ).

ابـن كثيـــر ،عماد الدين ابي الفدا اسماعيل (ت : ٧٧٤هـ)
البداية والنهاية في التاريخ (القاهرة : د / ت).

ابن منقـذ ،اسامة بن مرشد الكناني (ت: ٥٨٤هـ)
كتاب الاعتبار ، تحقيق فيليب حتي (الولايات المتحدة : ١٩٣٠)
ابن الـوردي ،زين الدين عمر (ت : ٧٥٠هـ)
تتمة المختصر في اخبار البشر المسمى بتاريخ ابن الوردي (القاهرة : ١٢٨٥ هـ) .
الـكتـبي ،محمد بن شاكر (ت : ٧٦٤ هـ)
عيون التواريخ (بغداد : ١٩٧٧) .
سبط ابن الجوزي ،شمس الدين يوسف (ت : ٦٥٤هـ)
مرآة الزمان في تاريخ الاعيان (حيدر آباد الدكن : ١٩٥١).
القلقشندي ،أحمد بن علي (ت : ٨٢١هـ)
صبح الاعشا في صناعة الانشا (القاهرة : د / ت) .
الـذهـبـي ،شمس الدين بن عثمان (ت : ٧٤٨هـ)
دول الاسلام (حيدر آباد الدكن (١٤٦٤هـ).
ياقوت الحموي ،شهاب الدين بن عبدالله (ت: ٦٢٦هـ)
معجم البلدان (بيروت : د / ت).

ب- المراجع الحديثة :-

باكـر ، ارنسـت
الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني (بيروت: د/ت).
العـرينـي ، السيد البـاز
الشرق الاوسط والحروب الصليبية (القاهرة : ١٨٦٣).
عاشور ، سعيد عبد الفتاح
الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى (القاهرة: ١٩٦٣).
نـوري ، دريد عبدالقادر

سياسة صلاح الدين الايوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة
(بغداد : ١٩٧٦).

رنسيمان ، ستيفـن
تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني
(بيروت : ١٩٦٨) .

الشنتنـاوي ، أحمـد
دائرة المعارف الاسلامية (مادة طغتكين).

Ency , of Islam , Vol , I (Art Atabak) .

Champodor (Albert): Saladinle Plus Purherosde Islam (France, 1956).

Daniel (Norman):Islam and the West (The Making of an Image) Edinburgh, 1966) .